المستشرقون والطرق الصوفية

للاستاذ الدكتور محمد غلاب

اتفق الصوفية الحقيقيون ـ دون شذوذ أى واحد منهم ـ على أن الغاية الاخيرة ، بل الوحيدة لتصوفهم هى وصول الصوفى الى ربه ، وفناء كيانه فى نوره الاقدس • ولكن طبيعة الاشياء تقتضى أن تكون الوسائل العليا متنوعة ، بل متباينة أحيانا لتلتئم مع اختلاف أشخاص الصوفية وتنوع مشاربهم ونزعاتهم ، وتباين عقلياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم • ومن ثم فان الباحث المعنى بدراسة التصوف ، أو الناظر فى أحوال الصوفية ، لا ينبغى أن يوجه دراسته الى الغاية السامية التى هى دائما هى لا تتغير ولا تتبدل ، وانما يجب عليه أن يحصر عنايته فى نقطة البدء ، ومراحل السير ومنازل السلوك ، والتقدم فى الاحوال والمقامات ، وارتقاء درجات سلم الوصول الى مداومة الارتفاع فى معارج القدس •

على أن هذه الوسائل المتعددة تنعطف الى التوحد بقدر ما تقترب من الغاية • وذلك أمر طبيعى ما دام أن القرب منها يقضى شيئا فشيئا ، على التباين الناشىء من الاختلافات الشخصية الأرضية •

وكما أنه من الواضح أن تعدد الوسائل لا يمس من قريب أو من بعيد وحدة الغاية ، كذلك هو لا يمس وحدة المبدأ العقيدى المتفق على ثبوته ووضوحه ، ولا وحدة التعاليم الدينية التى هى المرشد الاول والاخير للجميع من غير استثناء ، والحصن المتين الذى يجعل اختلاف الوسائل أمرا هينا غير ذى بال •

تلك مبادىء أولية اتفق عليها الجميع فى محيط التصوف الاسلامى ، بل فى جميع محيطات التصوف لدى أهل الحضارات الشرقية العريقة كالحضارة الهندية مثلا • ولذا يقول المثل السائر : « كل شيخ له طريقة » يقول ذلك عندما يراد تبيين أنه توجد وسائل متعددة لتحقيق غاية واحدة معينة لا يشوبها التعدد ، ولا يعتورها التغير أو الاختلاف •

ولا جرم أن أهم ما يلفت النظر فى هذه النقطة ، ويجعلها جديرة بالعناية هو أن عددا من المستشرقين قد خدعهم تعدد الطرق الصوفية عن أنفسهم ، فحسبوا أن هذا الاختلاف الظاهرى الموجود بينها هو آية الزيف والبطلان من جهة ، وانه ينتهى الى الابتعاد عن التعاليم القرآنية من جهة أخرى ، فاتخذوا ذلك التعدد فى الطرق ، ذريعة للطعن على صوفية المسلمين والنيل منهم •

ولقد رد المستشرق الفرنسي الكبير المعاصر الاستاذ (لويس جارديه) على أصحاب هذا الرأى الفج بقوله : « ان التصوف الاسلامى فى العمـــوم ، يتقدم الى الناس بوصف أنه قاعدة من قواعد الحياة ، وليس معناه قطع العلائق مع القرآن كما ظن بعض المستشرقين الآخرين ذلك خطأ ، وانما هو بالحرى استكناه لمعانى القرآن البعيدة ، وتعمق فى مراميه الخفية » .

ومما لا ريب فيه أن أخطاء أولئك المستشرقين الذين يرد عليهم الاستاذ (جارديه) قد نشأت من الخلط بين المناهج والمذاهب وبين الفروع والاصول أو الاعراض والجواهر ، أو الوسائل والغايات . ولو أننا نظـــرنا مثلا فى وسيلة الذكر والاوراد المتنوعة ، لرأينا أنها كانت سببا فى وجود تأويلات تعتبر أشد ما تكون تباينا . وهى فى أكثر الاحايين تأويلات ســـطحية لا تستكنه أعماق الوسائل ، ولا تسبر أغـــوار الغـــايات . بل هى براقة لماعة (**كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا** .) ومن أمثلة ذلك ما يحدثنا به المستشرق المعاصر (دينيس سورا) الاستاذ بجامعة لنـــدن اذ يقول :

« ان تلك الافعال الزائدة على حـــد المألوف ، والصـــادرة عن أولئك الدراويش الصائحين يدورون يمنة ويسرة ، والقـــائمين بغـــير ذلك من الحركات ، هى أفعال متنوعة تنوعا لا يندرج تحت حصر ، فالجنون من جهة ، وخداع المحتالين من جهة ثانية هما الطرفان النهائيان لســـلم كل درجاته الاخرى معروفة » .

ومما لا شك فيه أن هذا المستشرق هو نمـــوذج من نمـــاذج الجهـــل والسطحية من بين ملاحدة المستشرقين الماديين الذين تبدو السخرية من جميع الأديان سافرة فى أساليبهم ..

ومما لا ريب فيه أن هؤلاء هم عاجزون كل العجز عن أن يفهموا أساس هذه المشكلة وهو أن التجربة الصوفية تتعارض أشد التعارض مع اتجاه المعرفة الحسية . وبعبارة أوضح هم غير قادرين على أن يجتازوا الظـــواهر الخارجية أو أن يتبينوا الوحـــدة من وراء التعدد ، ففى الحق أن الذكـــر يحتاج اليه ، فى صورة جد شرعية ، كوسيلة لاعداد الروح البشريةللصعود الى ربها ، بل هى لا تستغنى عن مرافقته آياها بعد الاتصـــال . ولقد ورد فى فضل الذكر من الآيات الكريمة ، والاحاديث الشريفة ما لا يدع مجـــالا للشك فى سمو منزلته . فمن الآيات على سبيل التمثيل ، قول الله جل شأنه :

« **فاذكرونى اذكركم** » وقوله : « **فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم** » . وقد علق ابن عباس رضى الله عنه على هذه الآيه بقوله : « أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ،والسر والعلانية » .

ومن الاحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : « ذاكـــر الله فى الغافلـــين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم . » أو : « ذاكـــر الله فى الغافلـــين كالمقاتل بين الفـــارين . » وقوله : « يقول الله أنا مع عبـــدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى . »

ولقد صور لنا حجة الاسلام الامام الغزالى فضل الذكر ومنزلته وآثـاره حيث قال ما نصه :

« والمتمسكون بكتاب الله هم الذين استراحوا من الـــدنيا بذكر الله . والذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله ، وماتوا بذكر الله ، ولقوا الله بذكر الله » . ومن يتيسر له بدوام الذكـــر الانس بالله ، أو بدوام الفـــكر التحقق فى معرفة الله ، فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة ، فان غاية العبادات ، وثمرة المعاملات ، أن يموت الانسان محبا لله ، عارفا بالله ، ولا محبة الا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة الا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط فى كل واحد منهما » .

ولكن لما كان ذلك الاتصال ـ عند المتزمتين فى المحـــافظة على دقائق الشريعة ـ يجب أن يحتفظ بوصفه الذاتى كهبة الهية ممنوحة ، لا كحـق مكتسب اذا تحققت وسائله ، تحتم وجوده . لما كان الاتصـــال يجب أن ينظر اليه على هذا النحو ، فلم يعتبر أئمة الصوفية الذكر أداة توصـــل بالضرورة الى الاتصال .

وكما أن الذكر لا يحقق الاتصال بالضرورة اذا وجد ، كذلك لا يتوقف الاتصال أو يتأخر اذا لم يوجد ، بل هو كغيره من الوســـائل التى يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر . ومن ثم يقول الحلاج : ان الفكـــر كالذكر متعادلان فى الشرعية . ولقد ورد فى فضـــل الفكر من الآيات والأحاديث والآثار ما لا يقل عما ورد فى منزلة الذكر . فمن ذلك قـــول الله عز وجل : « **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** » .

غاية ما فى الامر أن الذكر ميسور للعامة والخاصة ، بينما أن الفكر ـ ولا سيما الفكر المتركز ـ عسير أشد العسر لا يقدر على مزاولته وتحقيقـه الا صفوة الصوفية وأعلامهم من المصطفين الاخيار . ولما كان أول واجبـات المهيمنين على الطرق الصوفية ، هو اعانة الكافة على الوصول الى الله ، فقـد عنوا بالاذكار والاوراد عنـــاية فائقة ، وجعلوها فى طليعـــة تعاليمهم ووصاياهم ، واعتبروها من أقوى الوسائل العملية التى يمكن أن تحقـق الغاية العليا ما دام انها تتعلق بالكافة أو الاكثرية من جماهير المسلمين . وان لم يكن توصيلها الى الغاية أمرا حتميا كما أسلفنا ، لانه ليس فى مقدور كائن من كان أن يتحكم فى المنح الالهية أو أن يحتم وجودها عند وجـــود وسائلها . كما انه لا حرج على فضل الله أن يأتى بلا وسائل . .

بقيت هنا نقطة نود أن نوفيها قبل مغادرة هذا المقـــام ، وهى أن كل طريقة من الطرق الصوفية ، قد رسمت لنفسها مناهج معينة محددة عنيت برعايتها والمحافظة على تفاصيلها أشد العنـــاية وأدقها . والسر فى ذلك هو أن المهيمين على تلك الطرق قد أوتوا من نفاذ البصـــيرة ما مكنهم من الايمان بأنهم لو تركوا أتباعهم يسيرون فى وسائلهم بلا مناهج قاســـية ، لضلوا الطريق وانحرفوا عن الصراط السوى ، واستبدلوا الالهام بالعقـل الباطن أو اللاشعور ، كما يسميه علم النفس الحديث . واذ ذاك تقع الكارثة ويتحقق الفشل ، وذلك هو الخسران المبين .

لهذا رسم أعلام الصوفية فى طرقهم ، مناهج واضحة حددت كل طريقة فى منهجها خطوات أتباعها خطوة خطوة ، وعينت لهم درجات سلم الارتقاء ، ووضعت لهم قواعد السلوك ، وأحاطتها بالضمانات الواقية من الانهيـــار أو الانحراف لتؤمن حياة المريد الروحية من غوائل التيه والضلال وتحوطها بكل مؤهلات الهدى والرشاد .

محمد غلاب

كتاب الرعاية لحقوق الله

أصدرت مكتبة دار الكتب الحديثة كتاب « الرعاية لحقـــوق الله » للامام الصوفى الكبير الحارث المحاسبى ، وهـــو موسوعة صوفية كبرى ، وأصل عظيم جليل من أصول التصوف وعمده .

وقد حققه وقدم له وعلق عليه الاستاذان الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، وهو أول الكتب التى تنشرها لجنة الاصول الصوفية ، بتأييد وتشجيع من فضيلة الاســـتاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الاوقاف .

والكتاب يقع فى حوالى مائة صفحة من القطع الكبير على ورق مصقول وثمن النسخة مائتان قرشا .